رحلة إلى الحجاز

للشيخ مصطفى البكرى الصديقى

للأستاذ سامح الخالدى

— ٢ —

بين رحلة الشيخ الأولى إلى الحجاز سنة (١١٣٠هـ) والثانية (١١٤٥ هـ) خمسة عشر عاما. وفى هذه الرحلة وصف أدق للطريق من الأولى، وقد رافقه فيها كل من الشيخ جرار، كبير جبل نابلس، والشيخ حسن بن مقلد الجيوسى شيخ بنى صعب، وكلاهما من شيوخ الحزب القيسى فى جبال نابلس

وقد اجتمع الشيخ بعبد الله باشا، وذلك بواسطة محمد ابن مكى الغزى، وكان الأخير فى معية الباشا، ومن أتباع الشيخ، وعبد الله باشا أحد ولاة الشام، وقد كان واليا لها سنة (١١٤٣ هـ) أى قبل سليمان باشا العظم

ويتعرض الشيخ إلى ذكر أذية الأعراب للحج، ويصف لنا زيارته للمدينة، ومكة، وينزل فى مكة فى بيت الشريف يحيى ابن بركات ويمدحه ويثنى عليه، ولا يترك الشيخ هذه الفرصة تمر، فينشر طريقته فى الحجاز، ومن بين الذين أخذوا عليه العهد مدرسان فى الحرم المكى

ثم يصف لنا طريق رجوع الحج، وما قاساه فى طريقه، ويذكر الجردة، وقلعة هدية التى عمرها سليمان باشا العظم، وقلعة (جفيان) التى عمرها الوزير عبد الله باشا

ولنترك الشيخ البكرى يقص علينا الآن رحلته الثانية إلى الحجاز فيقول:

«وبعد فيقول العبد الفقير للمولى الغنى، مصطفى سبط الحسين الصديقى، لما شاء الحق التوجه إلى بيت الله وزيارة رسول الله وقد هيأ الله المسير لوازمه وسهل أسبابا، وتوجهت الهمة، غب عزمة، للمنازل الرفيعة، وذلك بعد تكرار سنة استخارة وتحرر استشارة، وكان المسير إلى المقام الخطير، يوم السبت خامس شوال فى ثانى ساعة منه، حان الارتحال، عن الأهل والأولاد والعيال، عام خمس وأربعين ومائة وألف (١١٤٥ هـ ـ ١٧٣٢م) وكنا ودعنا خلاناً وأصحابا، وجيرانا وأحبابا، وإخوانا وأنسابا، ولم يزعج الفؤاد، إلا الوداع ثمرات أكباد من الأولاد، لم تدر من عجمة إعرابا، فطفت المدامع على الخدود يروقها لوامع، مرسلات كالهوامع، القوامع التى لا تقر انسكابا، ولم تخرج من الدار حتى ودعتها كالحرم الجامع للأنوار، بركعتين، وفيض العين كالعين، أضحى منسابا، وذكرت بعض ماورد فى الخبر لمن أراد السفر المسفر هلاله الأبدر لما لا يقدر حسابا. وفيه من قاله رزق خير ذلك المخرج وصرف عنه شره، وهو بسم الله آمنت بالله واعتصمت بالله، وتوكلت على الله ولا حول ولا قوة إلا بالله

فى وداع الشيخ البكرى:

«وممن خرج للوداع شيخنا الأوحد، بيضة البلد، جناب الشيخ محمد الخليلى الفرد، ومعه جمع يحمد، وقع الله منهم ومنه جنابا، وقد ألهم فى تلك المواقف دعوات يعجب منها صاحب القاصد والواقف، ألاقت دواة المدامع وأجرت انسحاب الواقف، إذ جبرت فى الميادين جوابا، وتذكرت هنا قول قرنيا السيد نصرى نجل السيد أحمد الحصرى الحسينى، حين ودع شيخه من إقامة خليفة بعده فأحسن ذهابا وإيابا، الشيخ عيسى الكنانى منحهما دينا صوابا وحباهما آدابا «السم من ألسن الأفاع؛ أيسر من قبلة الوداع»

«وحين عزمت على السير إلى معالم البرات والمير، أحببت أن أضع رحلة تجمع مايحصل منه خير، وأن أسميها (الحلة الرضوانية الإنجازية الدانية، فى الرحلة الإحسانية الحجازية الثانية)

«وبعد أن ودعنا أولى الوجوه النيرة، ومرنا إلى قرية (ألبيرة) بمقلة دامية غير قريرة، واحتثنا بوحشة الفراق كسيرة،

ولدى أرجائها الندية، ودع صديقنا ابن هندية[١]

ومنها أتينا (الجلزون [٢]) بهون، وعاد الرفاق مصاحبين الحون والصون، وارتحت هنية عند بير زيت[٣] ودعيت إلى المبيت فأبيت ، ولما صليت استدعيت كاسات قهوة سودا وكان الفراق سقاني الحرا ، راجيا بشرب ابنة التين برءا يعافى من الزفرات جرا ، وجلسنا فى قرية (عارورة) جلسة خطيب مشهورة ، وأتينا (الزارع [٤]) والقلب من الندم قارع ، وبتنا وقد تخلف زارع الجميل ، الجانى بتأخره فلم يجن ثمرة الإكرام من الجميل ، مع ادعائه الحب الرابى كالحب المربى وأنه فى فنائنا المحلى لدى القرع بحلاوة القرع تربى ، فكانت الليلة ليلة محب سليم، أوضرير وقع فى غدير ، وخيم، سماءها ناقية من الصفا، أنقى من الراحة فى حان الوفا، وأسريت وقلت:

قد علونا متن الخيول صباحا ... كى نرى فى السرى وجوها صباحا
فتلقى من أهل(سلفيت)ناس ... لست ناس لهم عقودا سماحا

وهذا الأخ [٥] ماله فى الصداقة أخ ، وقد ترجمته فى (أردان حلة الإحسان فى الرحلة إلى جبل لبنان) وفى الرحلة القدسية الأولى والثانية ، أسكنه الله جنة قطوفها دانية ، وتلقانا أهل (مردا)[٦] من لم نجد لدعوتهم مردا ، وبتنا فى (جماعين) [٧] فجاءنا الأخ المساعد والمعين ، الحاج حسن مقلد (الجيوسى) ونزلنا معه إلى نابلس

١) هندية فاتنة مقدسية

٢) عين ماء تنبع من تحت طريق العربات السالكة إلى نابلس

٣) قرية معروفة فى فلسطين تحيط بها أشجار الزيتون وكروم العنب فيها الآن كليتان ثانويتان إحداهما للبنين والأخرى للبنات

٤) للزارع قريتان إحداهما (الزارع الغربية) والأخرى (الزارع الشرقية) والثانية هى المقصودة

٥) هو الشيخ محمد السلفيتى ، صديق الشيخ البكرى وخليفته وناشر طريقته وسفيره ، وقد كان الشيخ السلفيتى توفى قبل سنتين ودفن فى قرية سلفيت ، وهى الآن قاعدة قضاء جماعيل

٦) قرية إلى الجنوب من جماعيل ، وقد خرج منها علماء كثيرون من الأحناف والحنابلة ، وسكنها الحاقدون الدمرميون يوم كانت الحروب الصليبية قائمة . وقد نزح قسم من علماء مردا إلى دمشق والشام ، وأفتوا ونشروا المذهب الحنبلى

٧) جماعيل وتلفظ (جماعين) من المراكز العلمية الكبرى الإسلامية فى القرون الوسطى ، خرج منها علماء كثيرون ، ومنهم بنو قدامة مؤسسو الصالحية بدمشق ، ومنهم عبد الغنى النابلسى (القرن الثانى عشر) ٢٢ - ٣٧

فى نابلس وسفرها الى كور فجنين :

«وذلك نهار الاثنين ورحلنا يوم الخميس من (الدرويشية) إلى قرية كور غور بأمور فرشية ، وكنا حللنا فى نابلس بسطا بساطه مهدور ، والإخوان يناجون الودود فى الأسحار بكبد مقصور ، وقد حمى الثغر منهم بالوداع وهو مبرور

« وبتنا ليلة الجمعة فى (كور [٨]) ونصبنا الخيام يومها المشكور ، وسرنا يوم السبت غب وداع مذكور ، إلى حوض السيلة [٩] والدمع زاد الفراق سيلة ، وكنا نزلنا (رامين) [١٠] لسلاح الافتضاح رامين ، وفى (الحوض) ودعنا إخوان الصفا وسرنا إلى (برقين) وفيها ورد الأخ الأمجد الشيخ أحمد الموقت ناو على الحج ، وعمدنا (جينين) واجتمعنا بالمجذوب ذى الفنون، الشيخ أحمد قبون ، وكان قد صحبنا الشيخ خاطر، فبشر بما يسر الخاطر

صوب الجالوت [١١] الى جسر المجامع [١٢] الى الطيبة فعصما فأريد [١٣] :

«وارتحلنا إلى (الجالوت) المباح غيره لا كنهر طالوت ، وكنا اجتمعنا بكبير جبل نابلس الشيخ جرار [١٤] ، عازما على التوجه إلى الحجاز وتلك الدار ، ولم يصحبنا إلا طالب الافتنام، المدعو فى الآكام غنام ، وسلامه القيصى قاصدا بالخدمة الاستخدام ، وجزنا جسر المجامع ، وحزنا البسط الجامع ، واسترحنا لدى (الصما) والأذن عن الفحشاء صماء، وقلت :

(٨) كور هى بلدة الشيخ حسن بن مقلد الجيوسى شيخ بنى صعب ويسكنها آل الجيوسى ، وهى قرية حصينة

(٩) السيلة ، سيلتان (سيلة الظهر) وسيلة الحارثية ، والمقصود الآن الأولى وهى الطريق السلطانى المؤدية للجنينين

(١٠) رامين ، من قرى بنى صعب وقد خرج منها أكثر من عالم حنبلى

(١١) الجالوت ، فى مرج ابن عامر ، فيها كانت معركة التتار التى هزمهم فيها الظاهر بيبرس البندقدارى

(١٢) جسر المجامع ، هو أحد جسور نهر العريسة أو الأردن ، جنوب بحيرة طبريا وجسور الأردن الشهيرة من العهال جسر بنات يعقوب ، الجسر المجامع ، الجسر الشيخ حسين ، الجسر الدامية ، الجسر الذى

(١٣) أربد مدينة فى شمال الأردن ، تقع إلى شرق بيسان ، ويسلك منها إلى الرمثا ، فالمزيريب ودرعا وهى قاعدة قضاء أربد وعقدة اتصال عامة

(١٤) شيوخ الحزب القيسى فى جبل نابلس وعاصمتهم (صانور)

بدت أذني من الفحشاء صما سويعة إذ مررت بأرض صما
يطاب الوقت لما أن حللنـــا بطيبـــة وافنى والحق غما

ومن (الطيبة) نحونا (أربد) والوجه يرفى ويزيد

فى المزيديب مع الحج (٠٠):

«ومنها فى الصباح، عمدنا المزيديب(١٥) للاصطباح، ولما قبيل الظهر إليه وصلنا ، وعلى الهموم والأكدار صلنا ، رأيت حجا موفورا ، وجمعا موقورا ، وأول من تلقانا ، وأكرم بالتأهيل مثوانا ، صديقنا المحبون المعروك فى أوانى السلوك إلى ملك الملوك ، الشيخ يوسف الملوك ، المنظوم المحبوك ، فى سلك أهل اليقين لا الشكوك ، وهذا الذى صدق فيه ، قول النبيه بملء فيه:

وإذا العناية ساعدت عبد الشرا نفذت على ساعاته أحـــكامه

وأنزلنا فى خيامه ، وقابلنا بإكرامه ، وجاءنا بعد أن استقر بنا المقام فى فسيح الخيام ، الصديق الرفيق والخطيب الإمام ، الشيخ نور الله الجامى (١٦) ووالد الأخ فى الله الشيخ عبد الحق المراعي، فسلما سلام التزام ، واشتياق ينبئ عن أوام، ورأيت فى مزاج والده كثير فتور ، فقلنا يزول بمعونة الغفور النور

اجتماع الشيخ البكرى بالوزير عبد الله باشا :

«واجتمعنا بواسطة الصديق الأمجد، محمد افندى مكى المفرد، بالوزير عبد الله باشا ، منحه الله انبساطا وانتعاشا

«وجاءنى محب أهل الصلاح ، الشيخ محمد صلاح، وهو ممن يسلم للطائفة العلية الملية الأقداح ، لما له لأم الحق الصراح لاح، سيما الأكبرى فقد ألقى لدى شطه المراسى وأرسى السلاح ، ومعه الباب من الفتح المكى المملوء الأقداح ، بالكلام على الأسماء الإلهية المجلوة الألواح ، وطلب أن يسمعه الفقير فى كل نزل حضره أو أكثر تنفى عن الراح ، ولم يزل إلى أن ختمه فى العود الجليل فارتاح

فى الطريق الى المدينة المنورة :

وتوجهنا نقطع المراحل الحجازية ، المسماة فى الحلة الحقيقية لا المجازية فى الرحلة الحجازية ، إلى أن وصلنا (العلا) بحول طول من جلا وعلا . وبتنا ثانى ليلة على نية الإقامة ، وكانت للأخ الشيخ عبد الحق كرامة ، فإنه انتقل ثلث الليل الأول ، إلى جوار الكريم الرحيم الأول ، وصبر والده صبر عباد ، ودفناه قرب الجبل فى تلك البلاد . رحمه الله

« وقد غبطه على هـذا الاندراج ، لما فى الحديث الشريف الذى يرفعه جابر ، « من مات فى طريق مكة لم يعرضه الله يوم القيامة ، ولم يحاسبه » وقد ذكرت هذا الأخ فى الرحلة الثانية القدسية ، لأخذه الطريق واندراجه فى النسبة الأنسية

« ثم سرنا قاصدين مدينة الرسول ، دار الحصول ، ومنزل السول ، قبلة الإسلام ، ودار الأعيان وأرض الهجرة ، ومبوء الحلال والحرام ، حرم الأمان المفتوحة بالقرآن ، التى رمضانها وجمعتها خير من ألف رمضان وجمعة فيما سواها من البلدان ، والتى لا يدخلها رعب المسيح الدجال ولا الطامون ، ومن كاد أهلها اذاع كما يذاع الملح فى الماء ، فليحذر الكائد الفتون ، المؤذى جيران قرة العيون ، فإن الأمين المأمون لا يتخلى عنهم ولا يكون. نسأل الله أن يلهم ولاة الأمور إلى السعى فى إكرامهم كيما يكرمون، والتوجه إلى ما فيه راحتهم وأمنهم من كل ضرر من حرب أو غيرهم يكون

الرحلة بقية

سامح الكالرى

---

(١٥) من أعمال حوران إلى الشمال الغربى من درعا ، كانت فى العهد العثمانى ترتبط بسكة حديد مع دمشق، وتنقل منها حبوب حوران. أما فى عهد الشيخ فكانت إحدى المحطات فى طريق الحج

(١٦) عائلة الخطيب الجامية ، وينتسبون إلى الزين جامة الكتانى وهم خطباء المسجد الأقصى إلى الآن ، ومنهم فرع يعرف بآل الخطيب الكتانى

وحى الرسالة

فصول فى الأدب والسياسة والنقد والاجتماع والقصص

للأستاذ أحمد حسن الزيات بك